١ – موقعية القدس في الوعي الديني الاسلامي والمسيحي

بقلم: الأستاذة الدكتورة نشأت الخطيب
أستاذة التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية,
وفي جامعة بيروت العربية–بيروت
rimahkhatib@gmail.com

تنفرد القدس عن سائر مدن العالم بأهميتها الروحية كمركز لتراث وذكريات المسلمين والمسيحيين واليهود، لذلك استأثرت باهتمام الناس كافة في انحاء الكرة الارضية. ونستطيع الجزم بأن ما من بقعة في العالم اكتنف تاريخها تناقضاً كما فلسطين وعاصمتها القدس العربية لارتباط تاريخها بالعقيدة الدينية للأديان السماوية الثلاث والتناقض بين الفعالية الموروثة والحقيقة التاريخية القائمة أدخل مجتمعنا العربي في صراع عقدي حضاري وسياسي منذ فجر التاريخ.

فالصهيونية انتجت خطاباً ايديولوجياً عنصرياً بخصوص فلسطين استناداً الى تلمودهم الذي يأمر بقتل البشر والحجر ليعاد استخدامه حاضراً ومستقبلاً في خدمة سياستهم الاستعمارية التوسعية للسيطرة على كل فلسطين وطرد اهلها. والقدرة على تغيير التاريخ وانتاجه لا تأتي من فراغ فكري، فثمة اتجاهات فكرية تمهد السبيل الى ذلك، وكما يقول العالم النفسي ايريك فروم: " **ان كانت الفكرة تستجيب لحالة نفسية قوية لمجموعة من الناس فسوف تكون قوة فعالة في التاريخ** ". وعلى هذا الاساس تصرف الصهاينة في العصر الحديث، فبعد سيطرة اسرائيل على كل فلسطين عام ١٩٦٧ ابتدأ الصراع منذ مؤتمر مدريد يتركز على القدس لطمس معالمها المسيحية والاسلامية، وما حريق المسجد الاقصى عام ٦٩ الا ضمن هذا السياق. فالهدف التخلص من المعالم والآثار التي تكونت عبر خمسة آلاف سنة من التاريخ اي منذ بناها اليبوسيون حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، مستندين دوماً على ميثاق اسطوري بين الله وسيدنا ابراهيم ورد في سفر التكوين ونصه: " **في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً لنسلك اعطي هذه الارض، من نهر مصر الى النهر الكبير الفرات** " (سفر التكوين (١٥–١٨)

والسؤال، السنا كمسيحيين ومسلمين من نسل ابراهيم؟؟ لماذا يجب ان يقتصر نسل ابراهيم على اليهود؟؟.

أما من مفكرين يجابهون الحجة بالحجة؟؟ بلا هناك الكثيرين ولكننا في عصر لم يعد للقيم والاخلاق والدين هذا المحرك السحري الذي كان عند الاجيال السابقة.

هذه المقدمة ضرورية لارتباطها بالقدس ولتبيان موقعية القدس في الوعي الديني المسيحي والاسلامي ضمن اطار موقعها عند اليهود أولاً والصهيونية ثانياً، ولارتباط هذا التاريخ بواقع القدس حاضراً ومستقبلاً، ولما تتعرض له القدس المسيحية والقدس الاسلامية من الصهاينة وتحت ستار الدين دوماً.

والوعي الديني للقدس عند المسيحيين والمسلمين ارتبط بالعقيدة الدينية التي يؤمنون بها والتي اعتبرت هذه المدينة مقدسة. ومصدر التاريخ المقدس هنا هو نصوص مقدسة الهية تروي قصة او حكاية عن بيت المقدس. وقد ساهمت هذه النصوص وهذه القصص في تشكل وعي شعوب كاملة. ونظرة سريعة الى التاريخ والقوى المتصارعة فيه ترينا كيف كانت القدس دوماً الحافز والدافع والمجيش لحروب كثيرة دارت في القدس وعلى القدس بإسم الدين، حتى ولو كانت هذه الشعوب بعيدة عن القدس كما في الحروب الصليبية (حروب الفرنجة) حين اتت الجيوش من كل اوروبا الى القدس. فالقدس حاضرة بشكل مركزي في فهمهم للتاريخ الذي نشأوا عليه وانطبع في موروثهم التاريخي ومخيلتهم الدينية. واستعراض تاريخي سريع لكل ما جرى للقدس تاريخياً يقودنا الى معرفة أهمية الوعي الديني عند القدماء.

القدس والوعي المسيحي

ابتدأ تقديس الاماكن المسيحية حيث موطن طفولة المسيح وصباه باكراً مع والدة قسطنطين التي سميت بالقديسة هيلانه لايمانها المطلق بالمسيح وارضه التي ولد ونشأ وصلب ودفن فيها. والتي امرت ببناء كنيسة القيامة في المكان الذي دفن فيه المسيح. وما تزال هذه الكنيسة محجة للمسيحيين من جميع انحاء العالم الى جانب الاديرة والكنائس الكثيرة التي تغطي ارض فلسطين. وعندما انتعشت التجارة في اوروبا واصبحت بحاجة لأسواق جديدة شنت على بلادنا منذ ثمانية قرون هجوماً شرساً (وهو ما سمي تاريخياً بالحروب الصليبية) وسماه العرب حروب الفرنجة هذا الهجوم الذي هدف الى القضاء على الاسلام كدين وحضارة للسيطرة على الشرق. كانت تعبئة الجماهير الشعبية والامراء له هو الدعوة لاحتلال القدس بحجة تأمين طريق الحج، فخطبة البابا اوربانوس في هذا المنحى اكدت الاهداف العقائدية للحملة الصليبية فكانت رسالته "**السلام للنصارى والموت لأعداء الدين**". واستطاع تحت شعار الدين تجييش مئات الآلاف من المقاتلين من كل الطبقات الشعبية والتي اتت من الغرب الى الشرق لنصرة المسيحية في فلسطين، والصراع الذي دار بين ملوك اوروبا في الشرق لم يكن على القدس وكنيسة القيامة كما زعموا بل على اقتسام اجزاء واسعة من المشرق العربي الاسلامي وهو الهدف الرئيسي لهذه الحروب لكن استغلال موقع القدس مهد المسيح هو الذي استقطب هذا الكم الهائل من المقاتلين.

الوعي الاسلامي لموقعية القدس

بعد موت الرسول (ص) وفي عهد عمر بن الخطاب قرر المسلمين فتح بلاد الشام وخاصة مدينة القدس لاعتبارهم ان بشارة فتحها اتت مع الرسول (ص) وبنص قرآني في سورة الاسراء " **سبحان من اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير**" ، وهنا يتأكد ان الايمان ببركة المسجد وما حوله صار جزءاً من العقيدة الاسلامية. ولذلك اعتبر المسلمون ان الرسول (ص) فاتحها الأول وواضع حجر الاساس للوجود الاسلامي في هذ المدينة المقدسة. وكانت هذه الاشارات القرآنية حافزاً للمسلمين الى تحرير هذه المدينة المقدسة واعتبرت بيت المقدس محوراً اسلامياً منذ بداية الاسلام فإليها اتجه المسلمون أول ما اتجهوا للصلاة، وبعد الهجرة صلى الرسول (ص) نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً قبل نزول الآية الكريمة " **فول وجهك شطر المسجد الحرام**" (البقرة/١٤٤). من هنا اعتبرت بيت المقدس اولى القبلتين الى جانب آيات واحاديث كثيرة تشير اشارة او تذكر صراحة فضل بيت المقدس ومكانتها في الاسلام منها: "**وآويناه الى ربوة ذات قرار ومعين**" سورة المؤمنون ٥٠/. والتي فسرها ابن عباس انها بيت المقدس، والآية " **واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب**" (سورة ق/٤١) وقد فسرها الجلالين ان المنادي هو اسرافيل ينادي من صخرة بيت المقدس بالحشر، وهي وسط الأرض. وروي ان المكان القريب هو صخرة بيت المقدس وقوله تعالى " **في بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه**" (النور/٣٦)، واعتبرت هذه البيوت بيت المقدس بإتفاق الفقهاء.

والأحاديث التي تناولت مكانة القدس الاسلامية كثيرة سأكتفي بإثنين منها:

قول الرسول (ص) " **لا تشد الرحال الا الى ثلاث مساجد، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى،**" والحديث القائل: " **يا معاذ ان الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش الى الفرات رجالهم ونساؤهم واماؤهم مرابطون الى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام فهو في جهاد الى يوم القيامة**".

هذا هو موقع القدس في وجدان الوعي الاسلامي أرض مقدسة هي وما حولها، ونرى أهمية ما تمثله القدس في العقيدة الاسلامية وعند شعوب العالم الاسلامي من بعض الصور التاريخية، فالدفاع عن القدس اعتبر قديماً وحديثاً جهاد في سبيل الله ويوم زحف الغرب لاحتلال الشرق وسقطت القدس بيد الصليبيين، كان للمسلمين حرباً مقدسة تحت راية الجهاد. ولكن لماذا لم يستطع هذا الجهاد ان يصد الغزو الصليبي؟؟

الجواب نأخذه من الواقع التاريخي: ان منطقة بلاد الشام كانت مقسمة بين الفاطميين والامراء السلاجقة، وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون انطاكية، كان الفاطميون مشغولين بحصار القدس لاخراج السلاجقة منها. وعندما سيطر الصليبيون على القدس دخلوا المسجد الاقصى وذبحوا معظم من كان فيه.

فلماذا انهزم المسلمون؟؟؟

جواب كل المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عن هذه الحروب كان يقول ان احد العوامل الرئيسية في نجاح الحملة الصليبية الاولى كان تفرق كلمة حكام سوريا وعدم قدرتهم على التعاون عندما جاء الصليبيون الى الشرق.

واعتبر المؤرخون المسلمون سقوط القدس كارثة دامية دامعة. ويصف ابن الجوزي هذه الحالة بقوله: " **ان قاضي دمشق ومعه بعض المتنفذين اسرعوا الى بغداد ليستشيروا الخليفة العباسي بالدفاع عن القدس**". " **وفي بغداد قطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا والقاضي في الديوان اورد كلاماً ابكى الحاضرين. أما المستظهر العباسي فكل ما فعله الطلب الى السلطان محمد السلجوقي الاهتمام بالامر وارسال خطباء لتحريض الامراء والناس على الجهاد**"، الا ترون تطابقاً لهذه الصورة في مسيرة حكام هذا العصر؟؟ وحده صلاح الدين استطاع ان يعيش في ذاكرتنا وخيالنا رمزاً بطولياً لأنه استطاع تحرير القدس ضمن مشروع موحد ابتدأ مع عماد الدين زنكي امير حلب وحماه واستمر مع ولده نور الدين , وقد تم مع صلاح الدين لاعتبارهم ان الوحدة الاسلامية هي الرابط الضروري للتحرير. هذه الصور التاريخية للوعي الاسلامي لموقع القدس ماذا تفيدنا بوضع القدس اليوم؟؟؟ ما هو وعي المسلم اليوم بموقعية القدس الاسلامية؟؟؟

يوم سقطت القدس بيد الصهاينة عام ١٩٦٧، كانت ردة فعل العالم الاسلامي متواضعة، ولم تستطع هذه المدينة المقدسة بكل ما تمثل من ثقل ديني وتاريخي ان تحرك الجماهير العربية المسيحية والمسلمة ، فكان الغضب ليوم واحد بمظاهرات حاشدة، لأن الحكام غير مبالين لما وصلت اليه القضية الفلسطينية بما تمثل وبمن تمثل، سواء على صعيد التنظيم الجماهيري او المؤتمرات والندوات الكثيرة والغير فعالة طبعاً الا من باب رفع العتب.

فالقدس بواقعها التاريخي الديني تشكل نقطة تصادم تاريخية بين مشروع استقلالية الوطن الفلسطيني، ومشروع يهودية الدولة "دولة اسرائيل".

من هنا كان علينا ان لا نقتصر على الوعي الديني في فهمنا ومعالجتنا لواقع القدس حاضراً ومستقبلاً. فمشكلة القدس اليوم ليست مشكلة دينية فقط، انها قضية سياسية بالدرجة الاولى هي مدينة تحت الاحتلال يعمل فيها العدو هدماً وتهويداً، هي قصة شعب واحتلال واستيطان وتهجير ونفي وتغيير لهوية المكان، فإذا اختصرناها على انها قضية دينية فإن تفكيرنا سينصرف الى

القدس الشرقية التي لا تمثل اكثر من ٦ كلم ونضيع القدس الغربية واحياءها العربية كالقطمون والطالبية التي تشكل حوالي ١٧,٧ كلم حتى عين حارم (كما يقول عزمي بشارة).

ففي القدس يختلط التاريخ السماوي بالتاريخ الدنيوي لذلك من واجبنا لاسترجاع القدس ان نعمد الى بث ثقافة المقاومة الى جانب الوعي الديني. فالوعي الديني المرتبط برجال الدين الذين عليهم ايقاظ المعرفة لموقعية القدس في تراثنا الاسلامي ايضاً بحاجة الى وعي سياسي من قبل الجماهير العربية والاسلامية، والى التزام بقضية فلسطين برمتها، وهذا لن يحصل الا بطبقة حاكمة واعية ملتزمة بالصالح العام لقضايا الامة ، فقضية كالقدس تلزم المجتمع الاسلامي ان يعيد انتاج الرموز المحركة لاعادة صياغة الوعي الديني من جديد والبناء عليه. فعندما يبارك الله هذه الارض دور رجال الدين ان لا يبق قضية لديهم سوى القدس حتى استعادة الارض والمقدسات. ويكون ذلك بسلسلة من المواقف تبدأ :

بشرح تشابك المصالح بالنسبة للمدينة المقدسة وما حولها في ضوء العلاقة التاريخية بين العرب واسرائيل، وفي ضوء القطيعة التي خيمت على العلاقات بين المسيحية واليهودية تسعة عشر قرناً من الزمان والصراع الذي دار بين الغرب المسيحي والمشرق المسلم (الحروب الصليبية) في القرون الوسطى، وبين الارثوذكسية والكاثوليكية في العصور الحديثة حول الاماكن المقدسة، فهذا الصراع الطويل الذي هيأ للمسألة الشرقية دورها وللمسألة اليهودية ان تحقق وجودها في اوروبا عن طريق الحركة الصهيونية وتحالفها مع المصالح الاستعمارية في غزو البلاد المقدسة لم يكن مسالة دينية خالصة.

وهذا يقودنا الى طرح السؤال الآتي:

ماذا تمثل القدس اليوم في الوعي الديني عند المسلمين والمسيحيين في مشارق الارض ومغاربها؟؟ والتي تستباح كل يوم على يد الصهاينة قتلاً وتهجيراً وتدميراً للبيوت وقلعاً للأشجار واستباحة الأموات في مدافنهم؟؟

استنكار ليوم واحد ان حصل، وكأن مرجعية القدس كمركز اشعاع ديني على العالمين الاسلامي والمسيحي قد خبا نوره إلا على الفلسطينيين والمقدسيين الذين ما زالوا يناضلون بنفس الزخم منذ وعد بلفور. فيوم دنس المجرم شارون الحرم القدسي بحذائه اندلعت في القدس وفلسطين الانتفاضة الثانية ولم يحرك الحكام المسلمون شرقاً وغرباً ساكناً لماذا؟؟؟ وماذا تمثل القدس في الحاضر والمستقبل عندما يطالب الصهاينة بيهودية الدولة، ولا من يرد عليهم عند العرب؟؟؟ ولو برفض لفظي؟؟؟ ما العمل لنتخطى الحالة المتردية على امتدادات الساحة العربية والاسلامية؟؟

يجب البحث عن مفاهيم جديدة تعيد توقد دور القدس في قلوب المؤمنين كي يتكرس الوعي. وعندما يتكرس الوعي في ذهن الناس تمسك القضية بسواعد قوية وبعقيدة ايمانية للدفاع عنها حتى الاستشهاد كما يحصل اليوم مع ابطال المقاومة الوطنية والاسلامية في لبنان وفلسطين.

فالقدس وفلسطين برمتها ولدت من قصة شعبين جمع بينهما مخطط سياسي امبريالي خالٍ من الانسانية بكل وجوهها نتيجة طرد الشعب الفلسطيني لاحلال اليهود مكانهم، هذ الصورة ماذا عساها ان تولد غير الاحباط، ان لم يكن هناك فئة تسهر على اعادة الوعي الديني – والسياسي لأهمية هذه الارض المباركة هي وما حولها بنص قرآني. مع التأكيد على اننا لن نرجع القدس بالوعي الديني والتاريخي فقط.

<u>المطلوب</u>

١) ايجاد وعي داعم للوعي الوطني والقومي في مقاومة الاحتلال مع اعتبار كل القدس وليس القدس الشرقية فقط هي حرم شريف، وكل فلسطين ارض مقدسة كالقدس، لأن سورة الاسراء تقول المسجد الاقصى الذي باركنا حوله، وحوله هنا هو كل فلسطين.
ويجب ان نجابه اسرائيل بمنطقها، هي اعتمدت الاساطير لبث الوعي الديني، ثم اردفتها بالقوة العسكرية: بالدبابة والطائرة

والجرافة والبلدوزر والقنابل على انواعها انشطارية ومسمارية وعنقودية وذرية، الى التجسس والتآمر على شعوب المنطقة، وفرضت امراً واقعاً بالقوة على الارض ، فعشية احتلال القدس بدأت تخطيطاً وبناءً وهدماً وحفراً تحت المسجد الأقصى وكل الآثار الاسلامية ولم يكفها الهدم لتوسيع الساحات بل جرفت البيوت والشجر وشقت الطرق وسكك الحديد لتكريس واقع جديد يحقق اهدافها الدنيوية المبررة بالاسطورة والتاريخ المقدس.

٢) يجب ان يكون رد فعلنا بالمقاومة والصراع اليومي الذي لا يهدأ، مقاومة تستند الى شرعية الوجود على الارض ورفض الاستعمار، لأنه عملية سطو مسلح وعدوان وردة الفعل المقاومة هذه تستدعي مصادر شرعية ووطنية ودينية وخطاباً مقابلاً للخطاب التوراتي التلمودي وتاريخاً مقدساً آخر ولكنه يقينياً وليس اسطورياً.

٣) رد الفعل المقاوم عليه ان يستثمر تراث الشعب وتاريخه ودينه وفي انضباطية مسلكه المجتمعي، فعملية التعبئة الصهيونية تجري اليوم بشكل خاص على القدس وضواحيها منذ ال ٦٧. والشعب الواقع تحت الاحتلال احتاج ايضاً الى القدس كرمز، واصبح الحرم القدسي الشريف مركز حياة وهوية للمقدسيين بشكل خاص يلتفون حوله كل يوم جمعة رغم اضطهاد ومضايقات اليهود لهم ليؤدوا به صلاة الجمعة رغم المنع لمن هو دون الخمسين من عمره. فعلى رجال الدين والسياسة اعتبار كل فلسطين أرض مقدسة لأنها ارض الانبياء، ارض الرباط، ارض الفقهاء، فلسطين يجب ان تكون ارض العرب اولاً ثم ارض المسلمين، فالعرب مؤتمنون على مقدسات الامتين الاسلامية والمسيحية ويجب ان لا يتقاعدوا، وتقاعدهم عن عروبة بيت المقدس بما تمثله من آثار مسيحية واسلامية جعل دورهم التحريري المفترض دينياً وقومياً ينتهي بمفاوضات في امريكا لن تفضي لا الى القدس ولا الى دولة. فالى متى استراحة هذه الامة؟؟ الى متى ستسلم مقاليدها الى تل ابيب واوامرها؟؟؟ الى متى ستسكت عن استباحة القدس وبغداد وعن قلع جذور المسيحية من هاتين المدينتين والبلدين؟؟؟

٤) فالمطلوب من العرب اولاً والمسلمين ثانياً الحفاظ على مسيحيي الشرق بالقوة ذاتها التي يحاربون بها اسرائيل، لأن الحقيقة ان المؤامرة الصهيونية كانت تنصب بداية على تهجير المسيحيين من فلسطين ثم بعد ذلك من لبنان لتحل معادلة ارض بلا شعب لأن المسيحيين العرب المتجذرين في الشرق الاوسط يشكلون أداة إتصال وتواصل بين الشرق والغرب واقتلاعهم يترك للصهيونية الدور الفعال لتمثيل الشرق في الساحة الدولية.

فأول شروط النصر والتغلب على الهزيمة ان نفهم اسرائيل أننا لن نتنازل عن القدس والمقدسات وعن التنوع الديني والحضاري الذي عرفته منطقتنا ولو حاربنا الف سنة، فالمسيحية في ارضنا قبل الاسلام ومعه، وعلى المسلمين ان يعوا حقيقة دينهم، فاختلاف المذاهب هو اختلاف بالاجتهاد وليس بالعقيدة، وكل خلاف سني شيعي هو ما تريده اسرائيل.

فوحدة العالم الاسلامي اول رد ناجح بالتصدي للغزو الصهيوني، ثم الوحدة الوطنية، ثم العمل كما اليهود عرب ومسلمين كل في ميدانه وبلده او مهجره لمصلحة فلسطين والقدس، لانه بذلك يكون اميناً على خدمة بلده بالطريق الصحيح.

وسأروي لكم عن يهودي فرنسي كيف يتصرف تجاه اسرائيل. وهذا اليهودي يدعى Strauss Kan (ستروس كان) كان محافظاً لمدينة Sarcelle في فرنسا. وفي تصريح له منذ سنوات عدة لمجلة فرنسية قال: " **كل يوم استيقظ فيه، اول فكرة تكون في خاطري ماذا سأفعل اليوم انتاجاً يكون فيه خير لإسرائيل ليكون هذا اليوم حسناً في حياتي؟؟**". وهو نفسه كان وراء تظاهرات في فرنسا مع زوجته الصحفية اللامعة آن سنكلير (Anne Saintclaire) وحين قرر الجامعيون الفرنسيون مقاطعة جامعات اسرائيل بسبب مضايقة الجامعيين الفلسطينيين في بير زيت وغيرها..، قاد ستروس كان هذا وزوجته آن سنكلير المظاهرات لكسر هذا التحول النوعي في ضمير الجامعيين الفرنسيين المنفتحين.

أتدرون اليوم ما هي وظيفة ستروس كان ؟؟ انه يشغل وظيفة مدير البنك الدولي.

وهل تتخيلون دوره في حماية السياسات الدولية المقررة عالمياً لمصلحة الولايات المتحدة؟؟ وبالتالي لمصلحة اسرائيل؟؟ الصهيونية تعمل دوماً على انتاج عناصر تابعة لها من النخب التي تحكم مراكز القرار في كل البلاد بدعم الكيان الصهيوني الغاضب.
وعلينا ان نرد بالطريقة نفسها، وبالنهج نفسه، علينا ان نتكاتف ونتضامن ونعمل افراداً وجماعات بهدف واحد هو دعم الفلسطينيين في ارضهم ومناصرتهم ووضع كل ثروات المنطقة في خدمة قضية فلسطين، عندها فقط نكون على قدر التحدي وعلى مستوى المجابهة، وسيكون النصر حليفنا ان شاء الله، لأن ارادة المقاومة الصلبة ستنتصر في النهاية وليس الوقت ببعيد طالما الخطوة الصحيحة بدأت مع المقاومة في لبنان وفلسطين.